المبحث الثالث

العلاقة بين بداية الفصل ونهايته

تعد العلاقة بين بداية الفصل ونهايته من العلاقـات ذات الدلالـة الضـمنية في الدرس النصي .

وهي علاقة كاشفة عن مدى توفيق الكاتـب في إحكـام نصـه ، فكمـا أحكـم هذه العلاقة ـ عن طريـق إبـراز المناسـبة بـين بدايـة الفصـل ونهايتـه ـ أكـد أنـه ممسك بخيوط الفكرة التي يتحدث عنها وأنها امتلكته مـن بدايـة الـنص وحتـى نهايته .

وكأنه بذلك يضـع الـنص (بـين قوسـين) ، وعلـى المتلقـي أن يسـتنبط هـذه العلاقة ليكتشف الدور الكبير الذي قامت به في تماسك النص .

وتعرب هذه العلاقة عن نفسـها عقـب قـراءة المتلقـي للعبقريـة كلـها ، لأنـه سيجد العقاد يفتتح فصول العبقرية كلها بأسلوب واحد لا يتغير ، وكأنه يعطينا سمة أسلوبية خاصة به . وأعني بذلك أنـه يفتـتح الفصـل بعـرض النتيجـة الـتي توصل إليها من خلال دراسته للمواقـف الـواردة في هـذا الفصـل ، وكأنـه يوجـه ذهن المتلقي توجيهًا مقصودًا لفهم معين أو نتيجة محددة عليه أن يستنبطها من هذه المواقف .

هذا عن بداية الفصـل ، أمـا عـن نهايتـه فـتراه يعـرض ـ في فقـرة أو أكثـر ـ خلاصة ما توصل إليه من خلال دراسته للمواقف التي عرضـها داخـل الفصـل ، وبعبارة أخرى النتيجة التي انتهى إليها .

أي أن العقاد يفتتح الفصل بالنتيجة التي انتهى إليها في خاتمة الفصل .

ومن أمثلة ذلك :

أن العقاد افتتح الفصل الأول من العبقرية الموسوم بـ (عبقري) بقوله : (....... لم أر عبقريًا يفرى فرية ....) .

كلمة قالها النبي عليه السلام في عمر رضي الله عنه وهي كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء ، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال»[1] .

وهي عبارة مجتزأة من حديث للرسول ﷺ ورد كاملاً في نهاية الفصل . وهذه العبارة تصف عمر بالعبقرية كأن العقاد أعطى للقارئ النتيجة التي سيتوصل لها في نهاية الفصل أو يطلب منه ألا يفهم وألا يصف عمر ابن الخطاب بوصف آخر غير هذا من خلال قراءته لهذا الفصل .

فأطلق على الفصل اسم (عبقري) وافتتحه بالنتيجة السابقة واختتمه بعرض رواية الرسول ﷺ كاملة التي اجتزأ منها العبارة الافتتاحية ، وعلق قائلاً : (وتلك هي عبقريته التي لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به، صلوات الله عليه) »[2].

ويبرز دور اسم الإشارة (تلك) ـ بوصفه عنصرًا إحاليًا على المستوى البعيد ـ في الربط بين بداية الفصل ونهايته ، فالعقاد بعد عرضه للمواقف الدالة على عبقريته ، والنتيجة التي سبقت هذا العرض ، أحال إليهما باستخدام اسم الإشارة (تلك) ، وكأنه يؤكد للقارئ أن النتيجة التي عرضها في بداية الفصل هي نفس النتيجة التي سيتوصل إليها في نهايته .

وفي الفصل الموسوم بـ (رجل ممتاز) يفتتحه العقاد بقوله :

(يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله ، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذي جعله مستعدًا لتلك الأعمال مضطلعًا بتلك القدرة ، وإن لم يكن

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

من اللازم أن تقترن القدرة بالعمل الذي تستطيعه ، لما يتفق أحيانًا من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل .

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازًا بعمله ، ممتازًا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين) »[1] .

توصل العقاد إلى نتيجة وهي أن عمر كان ممتازًا بتكوينه الداخلي الذي أهله لأن يكون ممتازًا بعمله وذلك بمقاييس القدماء والمحدثين .

وقد لخص هذه النتيجة في نهاية الفصل فقال : « فهو رجل نادر بما يشهد به الأعمال والأخلاق نادر في مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين . أو هو رجل ممتاز ، وعبقري موهوب في جميع الآراء »[2].

وفي الفصل الخاص بـ (صفاته) يفتتحه العقاد قائلاً :

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال رجل عبقري أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون في الزمن الواحد بأكثر من الآحاد .

أنقول رجل قوي ؟ نعم هو رجل قوي لا مراء. وكل عظيم فهو قوي بمعنى من معاني القوة »[3].

فعرض العقاد في بداية الفصل لنتيجة توصل إليها من خلال الصفحات التي سبقت هذا الفصل وهي أن (عمر رجل عبقري وممتاز) ثم تطرق إلى صفة جديدة استنبطها من خلال الأحداث والمواقف الواردة في الفصل وهي أن عمر (رجل قوي) ، فذكرها صراحة في بداية الفصل بوصفها النتيجة التي توصل إليها .

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠ .

وهذا الفصل موسوم بـ (صفاته) أي أنه يدور حول مناقب الشخصية العمرية وصفاتها ، إلا أن العقاد اختتم الفصل بنفس الصفة التي افتتح بها الفصل ، وهي أنه رجل قوي ، وكأن ما ذكره من صفات يؤول إلى هذه الصفة ، وبعبارة أخرى يظهر تساند هذه الصفة مع صفات أخرى .

فهي قوة تلبس ثوب الرحمة ويدعمها العدل ، ومن ثَمَّ اختتم الفصل بقوله:

« ونحن في عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين . وتحسبهما حيلة من حيل الطبع في خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء . كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل ، أو كأن القوى يخلق نفسه ولا يخلق قويًا لتفيد قوته فائدتها في خدمة المحتاجين إليها ....

وبغير إمكان طويل في دقائق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق بين الخصلتين وتجمع بينهما معًا في عمر بن الخطاب ونعني بها عاتكة بنت زيد حين قالت في رثائه :

رؤوف على الأدنى غليظ على العدى　　　أخي ثقة في النائبات منيب

وهي تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة ، فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك ، وإنما هو أوفق شيء لطبائع الأشياء»[1] .

فالعبارة السابقة التي اختتم بها الفصل تؤكد أن قوة الفاروق لم تكن قوة طاغية أو باغية .

بل كانت قوة مسخرة لرفع لواء العدل ، وما تقوم بذلك إلا نفس تشهد لها بالعظمة . وهذا ما اختتم به العقاد هذا الفصل .

ونرى العقاد في الفصل الخاص بـ (مفتاح شخصيته) يفتتحه بمقدمة قصيرة

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٤٩ .

تهيأ ذهن القارئ للنتيجة التي توصل إليها وعرضها عقب هذه المقدمة القصيرة مباشرة ، وقبل الولوج في أحداث الفصل ، وهذه النتيجة هي :

« والذي نراه أن طبيعة الجندي في صفتها المثلى هي أصدق مفتاح للشخصية العمرية في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم »[1] .

فالعقاد عرض هذه النتيجة ، ثم بحث عبر صفحات الفصل في أسبابها ، وهذه النتيجة أيضًا هي التي اختتم بها الفصل فقال :

« وذلك هو الجندي في حالته المثلى .

وذلك هو المفتاح الصادق الذي لا نعلم مفتاح أصدق منه لخلائق هذا الجندي العادل الكريم »[2] .

ويأتي دور اسم الإشارة (ذلك) للبعيد ليربط بين النتيجة التي وردت في بداية وما بني عليها بعد ذلك ، وكأن العقاد يقول للمتلقي : إن النتيجة التي عرضتها في البداية ـ ولا شيء غيرها ـ هي الحكم الصائب ومن ثَمَّ اختتمت بها الفصل أيضًا .

ويفتتح العقاد الفصل الخاص بـ (إسلامه) بالحديث عن العمل الذي تتحول به حياة الإنسان تحولاً جذريًا ، مركزًا القول حول التحدي العقدي :

« يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذي يعمله الرجل وينساه غدًا ، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع له أثرًا يغير في مجرى حياته . فسبب واحد لعمل هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء .

ولكن العمل الذي تتحول به حياة الإنسان تحولاً حاسمًا لن يرجع إلى سبب واحد ولن نستغنى في تفسيره عن عدة أسباب .... لأن الإنسان إذا غير

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

معيشته فإنما يغير صناعة ، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلدًا ، وإذا غير زيه فإنما يغير سمتًا يقوم على كساء .

ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه واستبدل به كونًا آخر ، وقد غير ماضيه وماضي أهله ......» [1] .

واختتم العقاد هذا الفصل للإشارة إلى هذا التحول العقدي وطبقه على الفاروق فقال : (كان مسلمًا شديدًا في إسلامه فلم تكن شدته في إسلامه خطرًا على الناس ، بل كان ضامنًا لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة .

وكان جاهليًّا فأسلم ، فأصبح إسلامه طورًا من أطوار التاريخ . ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل طورًا من أطواره الكبار »[2].

ما صنعه العقاد في بداية الفصل هو نتيجة لما توصل إليه ولكنه ظهر في ثوب تمهيد لذهن المتلقي ، والحقيقة أنه توجيه مقصود من العقاد لفكر المتلقي لكي يصل معه في نهاية الفصل إلى النتيجة التي توصل إليها وعرضها في بداية الفصل .

وفي الفصل الخاص بـ (عمر والدولة الإسلامية) ، نرى العقاد يفتتحه بوصف للفاروق وهو أنه (مؤسس للدولة الإسلامية) ، مبينًا سبب إطلاقه هذا الوصف :

« ... أننا نسمي عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة ، لأننا أولاً لا نجد مكانًا في التاريخ أليق به من مكان

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ .

المؤسسين للدول العظام . ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، .... وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسًا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسسًا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه وكان مؤسسًا لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسسًا لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم...»[1] .

أي أن الفاروق كان مؤسسًا للدولة الإسلامية قبل ولايته للخلافة الإسلامية وبعدها ، وهذا ما اختتم به العقاد الفصل قائلاً :

«قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح في صدر الإسلام ينبغي أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام ، وأنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان ، فكان مؤسسًا لها قبل أن يلي الخلافة وينفرد بالكلمة العليا ، وكان في يوم إسلامه آخذًا في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء»[2] .

فبداية الفصل تقرير بأنه مؤسس للدولة الإسلامية ، نهاية الفصل كذلك ، وبينهما تظهر مظاهر هذا التأسيس ، فأسهمت بداية الفصل ونهايته في تماسك بنية الفصل الواحد . وفي الفصل الخاص بـ (عمر والحكومة العصرية) نرى العقاد يعرض في بدايته لنتيجة توصل إليها وهي أنه من الخطأ أن نصدر أحكامًا على حكام العصور القديمة انطلاقًا من مقاييس العصر الحديث ، فيقول :

«من الحقائق التي لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٨٥ .　　(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا ، وأننا مطالبون بأن نفهمهم في زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا في زماننا ، وأن الرجل الذي يصنع في عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التي يقتدي بها أبناء كل جيل ، ولا حاجة به إلى اقتداء بنا ، ولا أن يشق حجاب الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا »[1] .

وكأنه يقول للقارئ لولا هذا الاستنتاج الذي وضعته في بداية الفصل لوقعت في نفس الخطأ الذي وقع فيه آخرون في العصور الحديثة ، وهذا ما اختتم به الفصل :

« يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات »[2].

وفي الفصل الموسوم بـ (عمر والنبي) نرى العقاد يفتتحه بقوله :

« يندر أن يظفر الباحثون في طبائع الإنسان بمغنم نفسي هو أوفر ثمرة وأنفس محصولاً من دراسة عمر بن الخطاب لأن الظواهر المختلفة التي تتجلى في هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم ، ولا من ظواهر كل دراسة ، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جداً في النفوس التي نعهدها ، مما يتعذر جداً حتى في نفوس الأفذاذ من العظماء »[3].

فالنتيجة التي بدأ بها العقاد تتحدث عن أن علم الأخلاق سوف يظفر بمغنم كبير من خلال دراسته للشخصية العمرية .

وهذا دليل واضح على تأسيه بالرسول ﷺ ، فقد كان حب ابن الخطاب للرسول صلوات الله عليه وسلامه حب إعجاب بنموذج الإنسان الكامل .

(١) عبقرية عمر ، ص ١٠٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

فجاءت خاتمة الفصل معبرة عن ذلك :

« لو سئل فيه النبي سيد بني هاشم لأعاد فيه قوله :

« عمر بن الخطاب معي حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، والحق بعدي مع عمر بن الخطاب حيث كان »[1] .

فالجمل الثلاث ما هي إلا دليل على تمسك الفاروق بأخلاقيات الرسول الكريم ، ومن ثَمَّ صارت دراسة الشخصية العمرية مغنمًا لعلم الأخلاق ، كما عبر العقاد عن ذلك في بداية الفصل . وافتتح العقاد الفصل الموسوم بـ (عمر والصحابة) بقوله :

« بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه .

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه »[2] .

فبعد دراسة العقاد لعلاقة الفاروق بالصحابة ، رأى أن مبايعة عمر لأبي بكر قد طرحت الخلاف جانبًا ، وأن مبايعة الصحابة لعمر قد طرحت الخلاف جانبًا أيضًا إلا في بعض الأشياء التي ظهرت ولكن لا خطر فيها .

وقد اختتم العقاد الفصل بفقرتين تدوران في نفس الإطار ، فما فعله الفاروق مع أبي بكر رد عليه في موقف خالد بن الوليد منه ، وأخمد بذلك فتنة كانت ستشتعل لولا مروءة خالد التي سبقتها مروءة الفاروق :

« ومن الحق أن يقال إن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر ، وقد عرضت لنا هذا البطل في صفحتيه فإذا هو بطل الفؤاد في ولايته وبعد عزله ، وفي شدته على عدوه وطاعته لأميره .... وما على مثله من خير أن يحق عليه العزل في ميزان عمر بن الخطاب .

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحًا أي رجحان . وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقًا بالغض عنه والتجوز فيه . وكفى بالرجلين فضلاً أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانئ ، وكل منصف وجاحد»[1].

وفي الفصل الخاص بـ (ثقافة عمر) عرض العقاد في بدايته لصفات استخلصها من حياته ، تؤكد ثقافة الفاروق فقال :

« إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه إنه كان أديبًا مؤرخًا فقيهًا ، مشاركًا في سائر الفنون ، مدربًا على الرياضة البدنية ، خطيبًا مطبوعًا على الكلام ، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب»[2].

فهذه المقدمة تؤكد اتساع أفق ووعي الفاروق ، ومن ثَمَّ جاءت خاتمة الفصل مفيدة للتهمة التي ألصقت بالفاروق وهي (حرق مكتبة الإسكندرية) ، مستندة إلى الصفات التي عرضها في المقدمة لدفع هذه التهمة عنه»[3].

وفي الفصل الخاص بـ (عمر في بيته) دارت افتتاحيته حول المقابلة بين عظم منزلة الفاروق السياسية في مقابل زهده في متع الحياة على اختلاف أشكالها:

« كان الخليفة الأكبر ـ صاحب الأمر في الجزيرة العربية ، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة ، ومدبر الحكم في الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور رجلاً فقيرًا يعيش عيشة الكفاف ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال ، ويزهد في كثير من النساء»[4].

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١٦٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

وهذا المضمون هو ما اختتم به الفصل قائلاً :

« ولأن يموت عمر مدينًا موفي الدين لهو أعظم الشرفين .... وأيسر من ذلك شرفًا أن يموت غنيًّا بغير دين »[1] .

ومن خلال ما سبق يتبين للباحثة أن العقاد سعى سعيًا دؤوبًا لتماسك بنية الفصل الواحد من بدايته وحتى نهايته ، فقام بعرض النتيجة في بداية الفصل ، أو قام بتوجيه معين لفكر القارئ يدفع به للوصول إلى نفس النتيجة التي توصل إليها العقاد .

* * *

(١) عبقرية عمر ، ص ١٩٩ .